أبو النجم العجلى

الراجز الشاعر

دكتور/ عبد المنعم أحمد يونس

الحمد لله واجب الثناء ، مجزل العطاء ، يهب الحكمة لمن يشـــاء ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد امام البلغاء ، وسيد الفصحاء ، وخير من نطق فأبان ، وأدب بأدب السماء ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم باحسان ، وبعد ٠

فهذا بحث قصدت به اماطة اللثام عن شخصية أحد الرجاز الظرفاء ، والشعراء الندماء الذين وهبوا ظرف الحديث ، وجميل النادرة ، وأصـيل الكلمة ، فكان لهم أثر كبير فى خدمة اللغة ورفعة الأدب ٠

وليس عجيبا أن اتجه تلك الوجهة التى تستنطق التراث ، وتستلهم الماضى وتعيش بين ربوعه وفيا فيه ، ووديانه وصحاريه ، لأن عبق الماضى واريج زهوره مازالا يلهمان السارين ، ويأخذان بيد الدارسين والباحثين ، فـكثير من الباحثين المحدثين تخلبهم تلك العنـاوين البراقة ، والنظريات المستحدثة ظنا منهم أن صدى هذه العناوين سيجد آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، ولكنهم لو عـــكفوا على تراث أمتهم ، وأمعنوا النظر فيه لخرجوا بنتائج لاتقل اهمية عن تلك النظريات الوافدة ، ولرأوا الأصـالة فى كل سطر كتب بأقلام السلف ، وكل فكرة جادت بها قرائح القدماء ٠

ولقد دفعنى الى ذلك ـ أيضا ـ قلة الكتابات التى تـكتب عن اولئك الرجاز ، وغض الطرف عنهم فى الوقت الذى تجول فيه أقلام الكتاب فى شعر

الأعلام المرموقين ، ولو أننا سلطنا الأضواء على ذلك الفن الذى كان له أعلامه ومحبوه ورواده ومؤيدوه لخرجنا من ذلك بآيات بينات ، وصور باهرات يحتاجها الدارسون ، ومن باعدت الشقة بينهم ، وبين تراث أمتهم ، آن هؤلاء وأولئك بحاجة الى تجلية ذلك التراث ، وبيان قيمه وأصالته : حتى لاتجرفهم تلك الأفكار الوافدة ، والنظريت الدخيلة ، فيظنوا أن الخير كل الخير فى هذه الآراء التى شبهها - بعض العلماء - بالنباتات الشيطانية ، ليس لها جذور ضاربة فى الأرومة تشد من أزرها ، أو أصـالة من تراث تتكىء عليها ٠

ولعلنا نوفق فى طرح بعض الأفكار التى تهم القارىء من خلال عرضنا لتلك الشخصية التى وضعناها عنوانا للبحث ، والتى جاءت مجلية فى حلبة الشعر والرجز ٠

من أبو النجم العجلى ؟

أبو النجم العجلى « المفضل » كما يقول أبو عمرو الشيبانى ، أو كما يقول ابن الأعرابى : اسمه الفضل ابن قدامة بن عبيد الله بن عبد الله بن الحارث بن عبدة بن الحارث بن اياس بن عوف بن ربيعة بن مالك بن ربيعة ابن عجل بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن وهب ابن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار (١) ٠

وأبو النجم العجلى هو أحد الرجاز الذين جمعوا بين الرجز والقصيد ، يقول ابن سلام الجمحى ،« وكان أبو النجم ربما قصـــد فأجاد ، ولم يكن

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى ٠ الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ ط المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر « تراثنا » ٠

كغيره من الرجاز الذين لم يحسنوا أن يقصدوا ، وكان صاحب فخر وبذخ » (١) ٠

ويقول المرزبانى « ولم يكن أبو النجم كغيره من الرجاز الذين لم يحسنوا أن يقصدوا ، لأنه ربما يقصد فيجيد قال معاوية يوما لجلسائه : أى أبيات العرب فى الضيافة أحسن وأكثر ؟ قالوا : ليقل أمير المؤمنين ٠ فقال : قاتل الله أبا النجم حيث يقول :

لقد علمت عرسى قلاية أننى طويل سنا نارى بعيد خمودها
اذا حل ضيفى بالفلاة فلم أجد سوى منبت الأطناب شب وقودها(١)

ولم يكن أبو النجم شاعرا فحسب ، ولا رجازا فقط ، بل انه كان يجمع الى جانب شعره ورجزه روحا مرحة ولسانا فكها ، لقد أوتى ظرف الحديث ، وجميل النادرة ، وسرعة البديهة ، وقوة الحجة ، وقل أن تجتمع هذه الصفات فى شخص ، واذا اجتمعت تهافت عليه الناس ، واعجبوا به ، وتمنوا صحبته والقرب منه ، ورفعوا مؤونة التحفظ فيما بينه وبينهم فقد قيل : كان هشام بن عبد الملك يقول : « ما بقى شىء من لذات الدنيا الا وقد نلته الا شيئا واحدا أخا أرفع مؤونة التحفظ فيما بينى وبينه » يقول ابن سلام : « وكأنه قد نال ما اشتهى ، فرفع مؤونة التحفظ فيما بينه وبين أبى النجم العجلى الذى دخل عليه ذات يوم فقال : كيف رأيك يا أبا النجم فى النساء ؟ قال : مالهن عندى خير ، وما أنظر اليهن الا شزرا ولا ينظرن الى خزرا (٣) ، قال : فما ظنك بامير المؤمنين ؟ قال : ظنى بنفسى : قال :

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٤٩ ت محمود محمد شاكر ٠ مطبعة المدنى ـ القاهرة ب ـ ت

(٢) المرزبانى ٠ معجم الشعراء ص ١٨٠ تحقيق عبد الستار احمد فراج ٠ ط عيسى البابى الحلبى وشركاه القاهرة ١٩٦٠ ٠

(٣) نظر اليه شزرا : نظر اليه بمؤخر عينه وهو نظر الغضبان ، والخزر انكسار العين وضيقها وهو نظر المتجاهل للانسان رأيك فى النساء حاجتك وأربك ٠

لا علم لك يا أبا النجم ، ثم أرسل الى جرار له فسألهن عما ظن أبو النجم ، فقلن : يا أمير المؤمنين ، وما علم هذا ؟ ثم أقبلن على أبى النجـــم فقلن له : يا أعرابى أتقول هذا لأمير المؤمنين ، وليس منا امرأة تصلى الا بغسل منه ؟ فقال هشام يا أبا النجم دونك هذه الجارية ــ لواحدة منهن ــ فأخذ بيدها ، ثم أمره أن يغدو عليه بخبرها ، فغدا عليه ولم يصنع شـــيئا ، فلما رآه قال : ما صنعت يا أباالنجم ؟ قال : ما صنعت شيئا ، ولقد قلت فى ذلك شعرا ، قال : ماهو ؟ قال : قلت :

نظرت فاعجبهـــا الذى فى درعها من حسـنه ونظرت فى سربالیـــا

وأخذ أبو النجم يصـــف ليلته مع الجارية . وان كبر ســـنه جعله لا يستطيع التمتع بها • قال : فضحك هشام وأمر له بجائزة » (١) •

وهذه القصة والشعر الذى قيل فيها واردان فى الأغانى . وفى الشعر والشعراء ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ ، فضلا عن عرض ابن سلام الجمحى لها فى طبقاته عرضا مفصلا ، ومنها نتبين أن أبا النجم لم يكن رجازا فحسب بل كان شاعر أيضا ، وشاعرا فكها ظريفا ، ومنها نتبين ــ أيضا ــ مـدى رفع الكلفة بين هشام بن عبد الملك ، وبين أبى النجم العجلى الذى اتخـذه نديما يسمر معه ويسرى عنه بقصصه وفكاهاته •

وكان أبو النجم العجلى من الشخصيات التى عملت على انتشار فن الرجز وجعل الناس يعترفون بقوته وأصالته ، بل انه أسهم مع أقرانه من الرجاز فى جعل الشعراء يعترفون بفنيتهم فقد أسند صاحب الأغانى رواية عن أبى عبيدة قال : مازالت الشعراء تغلب حتى قال أبو النجم :

الحمد لله الوهوب المجزل

وقال العجـاج :

قد جبر الدين الاله فجبر

---

(١) ابن سلام الجمحى • طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٤٧ ــ ٧٤٨

وقال رؤبة :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق

فانتصفوا منهم » (١) ٠

واذا كان العرب فى الجاهلية قد **قصدوا** القصيد ، وقالوا روائع نتاجهم الشعرى ، فانهم لم يقولوا من الرجز الا أبياتا قليلة فى الحرب والفخر ـ كما سيأتى ، **وان أصحاب القصيد ما كانوا** ليعتدوا بالرجاز ، ويجعلوا بالرجز ، حتى نبغ الأغلب العجلى على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطوله ، وجعله كالقصيد شيئا كبيرا ، ثم أتى العجاج ورؤبة وأبو النجم ، وعم امرأ الرجز ، فافتنوا فيه ، وذهبوا به كل مذهب ، حتى رفعوا من شأنه ، **وشغفوا الناس به حبا** » (٢) ٠

وقد وضع ابن سلام **الجمحى** الرجاز **فى الطبقة** التاسعة من طبقات الاسلاميين ، وعد أبا النجم ثانى طبقته بعد **الأغلب العجلى** » (٣) **أما صاحب الأغانى** فقد قال عنه : انه من رجاز الاسلام الفحول المقدمين وفى الطبقة الأولى منهم » (٤)

وكانت بديهة أبى النجم تسعفه فى أمور كثيرة ، وكان أبلغ فى النعت من العجاج ـ كما يقول عنه أبو عمرو بن العلاء ـ رواية الأغانى ، وكان أسرع الشعراء والرجاز بديهة ٠ قال **الأصمعى** : **أخبرنى عمى** ، وأخبرنى ببعض هذا الحديث ابن بنت أبى النجم أن أبا النجم قال ٠

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى ٠ الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ المصدر السابق

(٢ مجلة المجمع العلمى بدمشق ٠ من بحث بعنوان لامية أبى النجم العجلى ج ٧ مجلد ٨ ٠ دمشق ٠ تموز يولية ١٩٢٨٨ م ٠

(٣)**محمد بن سلام الجمحى** : طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٣٧ المصدر السابق ٠

(٤)**أبو الفرج الأصبهانى** ٠ **الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ المصدر السابق**

الحمد لله الوهوب المجزل

فى قدر ما يمشى الانسان من مسجد الأشياخ الى جـــائم الجزار ، ومقدار ما بينهما غلوة أو نحوها ، قال : وكان أسرع الناس بديهة » (١)

ويبدو أن ظروفَ أبى النجم ، وحسن حديثه جعلا الناس يستحسنون رجزه ، ويستجيدون فنه ويعجبون به أكثر من أقرانه من الرجاز ، فقـــد سئل الأصمعى أى الرجز أحسن ؟ فقال : رجز أبى النجم (٢) ولا تبعد رواية الأغانى عن الأصمعى عن هذا المعنى .

وشهرة أبى النجم ترجع الى أراجيزه الكثيرة ، وخاصة تلك الأرجوزة اللامية التى سنعود الى عرضها فى نهاية البحث الا أنه كان من شـــعراء البديهة والارتجال ، « وقد نظمأبو النجم عدة قصائد الا أن شهرته ترجع الى أراجيزه التى يتناول فيها الموضوعات البدوية (وصـــف الجمال والخيل والفهود) ، ويمدح الأمويين : عبد الملك وهشاما وعبد الملك بن بشر والوالى الحجاج ويسلكه النقاد فى زمرة الأربعة السباقين فى الرجز ، وهم الأغلب من بنى قبيلته ، وتميميا بالبصرة ، والعجـــاج وابنـــه رؤبة ويقولون انه يفضلهم فى النعت ، كما انه أسبق منهم بديهة . ومهما يكن من أمر فان رؤبة هو الذى قال فى أرجوزة طويلة لأبى النجم أنشـــدها هشاما هذه أم الرجز » (٣) .

---

(١) أبو الفرج الاصبهانى الأغانى ج ١٠ ص ١٥٧ المصدر السابق .

(٢) الأصمعى : فحولة الشـــعراء . شرح وتحقيـــق د . محمد عبد المنعم خفاجى ـ طه الزينى . المطبعة المنيرية بالازهر .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى ص ٤٠٣ النسخة ا اعداد . ابراهيم زكى خورشـــيد . أحمد الشـــنتناوى د . عبد الحميد يونس . ط الشعب .

وعند حديث بروكلمان عن فن الرجز يقـول : « ولكن ازدهار فن الرجز وانتشاره تم على يدى شاعر بن نبغا بعد الاغلب • الأول سليل قبيلته - أى قبيلة الأغلب - أبو النجم الفضل بن قدامة العجلى ، الذى كان يجيد أيضا نظم القصائد ، وكان ينزل بسواد الكوفة فى موضع يقال له : الفرك أقطعه اياه هشام بن عبد الملك ، وتوفى فى أواخر عصر بنى أمية (١) •

وينقل صاحب خزانة الأدب كلام الأصبهانى فى الأغانى . وكلام ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ويقول : وهو أحد رجاز الاسلام المتقدمين فى الطبقة الأولى • قال أبو عمرو بن العلاء : هو أبلغ من العجاج فى النعت ، وقال ابن قتيبة فى طبقات الشعراء : كان أبو النجم ينزل سواد الكوفة (٢)

عصره :

وعصر أبى النجم هو العصر الأموى بكل ما فيه من ترف عقلى ، وحب لذلك اللون من الحياة التى عمت المجتمع الاسلامى بعد عصر الخلفاء الراشدين ، فقد عاش الأمويون حياة البذخ والنعيم الذى وصل اليهم من تلك الخيرات الكثيرة التى جاءتهم من شرق البلاد الاسلامية وغربها ، والتى جعلتهم ينعمون بسعة العيش . ويسخرون تلك الأموال لتثبيت ملكهم ، وتوطيد سلطانهم ، وكان لا بد لهم ومرتع الحياة خصب ، ونعيمها موفور - من أن يغدقوا على الشعراء والمادحين سحائب كرمهم - وجزيل عطاياهم . وأن يجعلوا المجتمع العربى يحس حيـاة اللين والتنعم بعد فترات التقشف التى نادى بها الاسـلام ، وحرص عليها الرسـول ، وخلفاؤه الراشدون من بعده •

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٢٦٢ الطبعة الرابعة دار المعارف نقله الى العربية د • عبد الحليم النجار •

(٢) عبد القـادر البغـدادى • خزانة الأدب ، ولب لباب العرب تحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ١٠٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ولعله يقصد بقوله : « طبقات الشعراء كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة •

ومن أجل ذلك نشأت فى هذا المجتمع تلك النزعات التى تواكب هذه الحياة . وتساير تلك الأحداث . وتمثل ذلك فى مجال الشعر والغناء، فقد استقطبت دور الغناء وأماكن اللهو التى نشأت فى حواضر البلاد الاسلامية شباب العرب الذين هرعوا اليها لقضاء أوقاتهم ، ولسد فراغهم . وقد نشأ - ايضا - لون من الشعر يلبى حاجة المغنين ، ويتفق وتلك الألحان التى تخلب عقول الرادة ، ومحبى ذلك اللون الجديد من الحياة . وكان لا بد أن تقوم نزعات معادية تقاوم ذلك اللون من الحياة . وتحث الناس على الزهد فيها ، والعودة الى ما قرره الاسلام من مبادىء . ولم يحدث ذلك فقط بل وجدنا تيارا آخر معاكسا للتيار العابث اللاهى وقد تمثل ذلك فى شعر الغزليين العذريين من أمثال كثير وجميل . هذه التيارات أذكت روح النقد . وأحدثت صراعات بين الشعراء والنقاد دارت بها المجالس الأدبية ، وتبلورت من خلالها بعض الآراء التى حرصت على تقويم ذلك الفن والنهوض به .

ان العصر الأموى حافل بتلك الصراعات المحتدمة ، والموجات المضطرمة التى جعلت المجتمع يعيش حياة فنية فيها كل ما يريد الانسان معرفته والوقوف عليه ، فيها اللهو وفيها الزهد فيها المجون وفيها العفاف فيها الفوضى وفيها الاستقامة ، وان المتتبع لتلك اللمحات الفنية التى كانت تعج بها المجالس الأدبية فى عصر بنى أمية يتبين له مدى ما أضفاه المشتغلون بالشعر والحريصون على نقده وتقويمه من تهذيب تقويم .

واذا كانت كتب الأدب قد سجلت كثيرا من الآراء ، وأطلعتنا على دور النقاد فى عصر بنى أمية فى توجيه الشعراء الوجهة الصالحة ، وبيان ما قد يكون الشاعر جانبه الصواب فى ذلك كما حدث عندما انشد عبد الله بن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان قصيدته التى يقول فيها :

ان الحوادث بالمدينة قد ... أوجعننى وقرعن مروتيه
وجببتنى جب السنام ولم ... يتركن ريشا فى مناكبيه

فقال له عبد الملك أحسـنت ، ولكنك خنثت فى « قوافيه » يريد استخدامه لقافيته التى أتى بها ، ولكن الشاعر يدافع عن وجهة نظره بقوله ماعدوت كتاب الله فقد قال الله تعـالى « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانية » ولكن ـ الفرق جسيم بين أواخر هذه الفواصل فى النغم وفى الروح . وبين قوافى ابن الرقيات ، وهو ان أراد أن يحتذى القرآن الا أنه لم يكن موفقا فى ذلك الاحتذاء » (١)

اذا كانوا قد صنعوا ذلك مع الشعراء فانهم أيضا كانوا يتتبعون الرجاز . ويأخذون عليهم ما أخطأوا فيه ، ولقد صنعوا ذلك مع أبى النجم العجلى الذى عاش فى هذا الجو الحـافل بالآراء النقدية ، والذى يعج بمجموعات هائلة من الشعراء فى كل الاتجاهات ، ومختلف الأغراض وقد كان أبو النجم يشارك الشعراء شعرهم ، ويتصدر مجموعة الرجاز الذين أوجدوا لهم مكانا بين الشعراء ، بل ويزحمونهم بمناكبهم .

الرجز والقصيد :

بدأ كارل بروكلمان حديثه عن الرجاز بقوله : « كان شعراء الجاهلية انما يستعملون الرجز فى أحوال البديهة والارتجال فحسب ، ولكن الرجز لقى فى العصر الأموى عناية خاصة عند كثير من الشعراء ، فأخذوا يذهبون به مذهب القصـائد ، وعمدوا الى تخفيف ما تتركه بسـاطة العروض ، وسذاجته فى النفس من ملل بحلية فنية من الألفاظ الغريبة ، والعبارات البعيدة المأخذ ، بل ربما كان هناك وجه من الحق فى اتهـام الراجزين الكبيرين اللذين يمثلان هذا المذهب الشعرى بأنهما عملا على زيادة ثروة المعجم العربى بما أضافا اليه من وضع صيغ جديدة . وممن ذكروا أن الرجاز

---

(١) طه أحمد ابراهيم : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٣٧ ط دار الحكمة بيروت ـ لبنان .

كانوا يخترعون ألفاظا جديدة فخر الدين الرازى فى كتابة « المحصـول » كما نقله السيوطى فى المزهر » (١) ٠

وكلام بروكلمان يتطلب منا الوقـوف عنـد كثير من عباراتـه التى اوردها . فالرجز لم يستعمله جميع شعراء الجاهلية . وانما اسـتعمله بعضهم فقط ممن غلبت عليه البديهة والارتجـال كامرىء القيس وطرفة ولبيد ، أما أولئك الشعراء الذين نقحوا شعرهم ، وقوموه فانهم لم يقولوا رجزا . أو أن الرجز كان يمثل المرحلة التالية للسجع ، والسابقة للشعر ، فلم يقله فى العصر الجـاهلى الا أولئك الشـعراء المتقدمون ٠ » ويرى الباحثون أن الشعر والموسيقى صنوان من أصل واحد نشآ معا ، ونميا معا ثم استقل الشعر عن الموسيقى ، وظلت الموسيقى محتاجة الى الشـعر فى الغناء ، غير أنهم قد اختلفوا فى نشأة أوزانه وقوافيه ، وأقرب ما يسوغ من آرائهم فى العقل أن العرب بدأوا بالنثر المرسل ، وتوصلوا منه الى السجع ومن السجع الى الرجز ، ومنه الى القصيد » (٢) ٠

فقد استعمل الرجز أولئك الشعراء الذى عاصروا نشـأة الشـعر وتكوينه لا أولئك الشـعراء الذين جاءوا بعدهم . أو الذين غلبت عليهم نزعة التنقيح والتهذيب فانهم لم يقولوا رجزا . فشعراء العصر الجاهلى لم يكونوا ـ جميعا ـ رجازا . وكذلك شعراء العصر الأموى ـ أيضـا ـ لم يكونوا جميعا . أو لم يكن أكثرهم ممن يجيد فن الرجز . كما نص عـلى ذلك أبو عمرو بن العلاء ، فقد قال الجاحظ : « وزعم ابو عمرو بن العـلاء أن الشعر فتح بامرىء القيس ، وختم بذى الرمة . ومن الشعراء من يحكم القريض ، ولا يحسن من الرجز شيئا . ففى الجاهلية منهم زهير والنابغة

---

(١) كارل بروكلمان تاريـخ الأدب العـربى ج ١ ص ٢٢٥ ترجمـه عبد الحليم النجار ط دار المعارف « الطبعة الرابعة » ٠

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ج ٧ مجلد ٨ ص ٣٨٦ المرجع السابق

والاعشى ، وأما من يجمعهما فامرؤ القيس . وله شيء من الرجز ، وطرفة ، وله كمثل ذلك . ولبيد وقد أكثر . ومن الاسلاميين من لايقدر على الرجز . وهو في ذلك بجيد القريض كالفرزدق وجرير . ومن يجمعهما كابي النجم وحميد الارقط والعماني وبشار بن برد . وأقل من هؤلاء من يحكم القصيد والارجاز والخطب ، وكان الكميت والبعيث والطرماح شعراء خطباء . وكان البعيث أخطبهم » (١) .

وأما قوله « ان الرجاز عمدوا الى تخفيف ما تتركه بساطة العروض وسذاجته في النفس من ملل بحلية فنية من الالفاظ الغريبة » فهذا ـ ايضا ـ فيه تهجم كبير على الفن الأول الذى عده العرب ديوان مفاخرهم وسجل مآثرهم . ومحط انظارهم . والمصور لآلامهم وآمالهم بل هو المعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم . وما سمى الشعر بذلك الا لصلته بالشعور والخيال « وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، صنعت الآطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ، وتتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج » (٢) .

وكان العرب ولا يزالون يطربون للشعر الموزون المقفى ، ولم تستطع تلك النزعات التي تحاول التحرر من الوزن والقافية أن تطيح بالشعر العمودي ، أو تنزله عن عرشه ، وتبعده عن الصدارة التي سيستمر محتلا اياها ما دام وجدان الشاعر ينبض بأحاسيس مجتمعه ، ويعبر عن آمال وآلام قومه .

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . البيان والتبيين ج ٣ ص ١٢٧ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان .

(٢) ابن رشيق القيرواني . العمدة ج ١ ص ٤٩ المصدر السابق .

ولقد استطاع الفحول من الشعراء أن يعبروا عن قضايا مجتمعهم بتلك الأوزان التى هزت مشاعر الجمهور . ودفعته الى تشجيع أولئك الشعراء لمزيد من الاجادة والعطاء . وقد أعطى الشعراء كثيرا فى شتى مناحى الحياة ليسعدوا مجتمعاتهم . وبقدموا للانسان نغمات جميلة . وأنغاما ممتعة . ولم يحدث أن أصيب انسان بملل ساعة سماعه للشعر أو قراءته ·

وهكذا يصدق قول ابن سلام الجمحى عن امرىء القيس انه لم يقل مالم يقله الشعراء ولكنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعه فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب الماخذ . وشبه النساء بالظباء . والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى . وقيد الأوابد واجاد فى التشبيه . وفصل بين النسيب وبين المعنى » (١) ·

ويرو كلمان يرمى الرجاز بأنهم حاولوا أن يصرفوا الناس عن الشعر باستخدام الحلية الفنية التى تعتمد على الألفاظ الغريبة · وهو كلام غريب حقا ، لأن المتتبع للرجاز لم يجد ذلك الحكم غالبا عليهم · قد يكون هناك أراجيز كثيرة لاتمثل · ذلك الحكم فاذا قرأنا أرجوزة أبى النجم العجلى التى يصف فيها فهود عبد الملك بن بشر بن مروان فاننا نرى فيها أصالة اللغة ، وقربها من الأفهام ، وبعدها عن الغريب من الكلام :

يقول ابو النجم :

جاء مطيع بمطاوعات علمن أو قد كن معلمات
فهى ضوار من مضريات تريك آماقا مخططات
سودا على الأشداق سائلات تلوى باذناب موقفات

---

(١) محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٥٥ المصدر السابق ·

حتى اذا كن على المجـــرات حيث تظـن الوحش آخـذات
قال : الســـتن بمـــازلات فسكر الطرق بمطرقات (١)
ثم حدون الرحلى مقبـلات فـرائبتهن مشـــــمرات
فلو ترى التيوس مضـجعات علمت أن ليس بســـالمات
أقول اذا جئن مذبحـــات على الأكافين معـــدلات (٢)

ما أقرب الموت من الحياة

لعل القارىء لهذه الأبيات يرى أن أبا النجم لم يستجلب فيها كلمات غريبة ، وانما جاء وصفه للفهود رائقا ، وجميلا ، فقد جىء بهن الى ساحة الصيد مدربات عليه أو كن من قبـل معلمات وتصـــــوره لنظر الفهود الضارية ومنظر عيونها ونعابها السائل على أشداقها وحركة أذنابهـا التى تحركها استعدادا للانقضاض ويستمر أبو النجم فى وصفه للفهود : حتى يأتى منظر التيوس المضجعات بعد الصيد . والتى أوحت اليه بهذه الحقيقة التى يعلمها الجميع . ما أقرب الموت من الحياة ..

اذا قرأنا ذلك وتدبرناه أدركنا أن الرجز لا يعتمد دائما على استعمال الكلمات الغريبة ، وانما هو لون من التغيير فى الصـياغة تألفه النفس . ويستريح له القلب ، ولذلك فان النقاد القدامى لم يعرضـــوا للرجز الا على أنه قسيم الشعر ، ولون من ألوان التعبير نبغ فيـه بعض الشعراء ، وتناوله بعضهم تناولا محدودا .

وكانت العرب تطلق على ما عدا الرجز من الأوزان كلمة القصيد يدل على ذلك قول الأغلب العجلى ، وقد استنشده المغيرة بن شـــعبة فقال له الأغلب :

---

(١) سكر الطرق : سدها ، وكل شىء سكر فقد سد .
(٢) « الاكافان » مثنى كاف بضم الهمزة وكسرها وهو شبه الرحال والأقتاب .

أرجـــزا تريد أم قصـــيدا لقد طلبت هينـا موجـــودا

ولقد فرق ابن رشيق بين الأرجوزة والقصـــيدة ، فالأرجوزة عنده تسمى قصيدة طالت أبياتها أو قصرت ، ولا تسمى القصيدة أرجوزة الا أن تكون من أحد أنواع الرجز التى ذكرت ، ولو كانت مصرعة الشطور كالذى قدمته ، فالقصيد يطلق على كل الرجز ، وليس الرجز مطلقا على كل قصيد أشبه الرجز فى الشطر (١) .

وأنواع الرجز التى ذكرها ابن رشيق هى :

١ ـ ما جا على مثال أرجوزة عبدة بن الطبيب :

باكرنى بســـحرة عـواذلى وعذلهن خبـل من الخبل
يلمننى فى حاجة ذكرتها فى عصر أزمان ودهر قد نسل

٢ ـ ما جاء على مثال قول الآخر :

القلب منها مستريح ســالم والقلب منى جاهـد مجهـــود

٣ ـ والنوع الثالث ما جاء على مثال قول القائل :

قد هـاج قلبى منـزل من أم عمـــرو مقفـــر

ثم يقول ابن رشيق بعد الكلام المتقدم :

« فهذه داخله فى القصيدة وليس بمتنع ايضا أن يســـمى ما كثرت بيوته من مشطور الرجز ومنهوكه قصيدة ، لأن اشـــتقاق القصـيد من قصدت الى الشئ ، كان الشاعر قصد الى عملها على تلك الهيئة ، وا رجز مقصود أيضا الى عمله كذلك » (٢) .

---

(١) ابن رشيق . العمدة ج ١ ص ١٥٩ ـ المصدر السابق .
(٢) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٥٨ المصدر السابق .

ويستطرد ابن رشيق فى التدليل على أن الرجز لا يطلق على أى نوع صرعت جميع أبياته بل لابد أن يأتى على مثال الأنواع الثـــلاثة المتقدمة فيقول : « ومن المقصد ما ليس برجز وهم يســـمونه رجزا لتصريع جميع أبياته ، وذلك هو مشطور السريع ، نحو قول الشاعر :

هل تعـــرف الدار بأعلى ذى القور
غيرها نـأج الريـــاح والمـــور
ودرست غـــير رماد مكفـــور
مكتئب اللـون مريح ممطـــور
وغير تؤى كبقـــايا الدعثـــور
أزمـان عينـــاء سرور المسرور
عيناء حـــوراء من العين الحـــور

يقول ابن رشيق « ان هذا على قول الجوهرى من الرجز فقد جعـل الجزء الآخر « مستفع لن » مفروق فيـــه الوتد ، فأسكن اللام ، لأن آخـر البيت لا يكون متحركا ، فخلفه مفعولات » (١) .

وينقل ابن رشـــيق قول ابن النحاس : « القريض عند أهـل اللغة العربية الشعر الذى ليس برجز ، يكون مشـــتقا من قرض الشىء أى القطع والتفرقة بين الأشياء ، كأنه ترك الرجز وقطعه من شـــعره ، ثم يقول ابن رشيق : « وكان أقصر ما صنعه القـــدماء من الرجز ما كان على جزئين نحو قول دريد بن الصمة يوم هوازن .

يا ليتنى فيهـــا جـذع أخب فيهـــا وأضـــع

حتى صنع بعض المتقدمين ـ أظنه ـ على بن يحيى ، أو يحيى بن على المنجم أرجوزة على جزء واحد وهى :

---

(١) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ المصدر السابق .

طيف ألم · بذى سـلم بعد العتم · يطـوى الأكم
جـاد بفـم · وملتـزم فيه عضـم · اذا يضـم

ثم يقول ابن رشيق : « ان اول من ابتدع ذلك سلم الخاسر يقول فى قصيدة مدح بها موسى الهادى :

موسى المطـر · غيث بكر تم انهمر · انـوى المرر
كم اعتسر · ثم ابتسـر وكم قـدر · ثم غفـر
عدل السـير · باقى الأثر خـير وشر · نفـع وضر
خـير البشر · فرع مضر بـدر بـدر · والمفتخـر

لمن غبـر

ثم يقول ابن رشيق · والجومرى يسمى هذا النوع « المقطع » (١) ·

ويختتم ابن رشيق بحثه بالفرق بين الراجز والمقصد فيقول : «والراجز قل ما يقصد ، فان جمعهما كان نهايه نحو أبى النجم فانه كان يقصد »(٢)

هذه بعض صور للأراجيز التى استعملها العرب فى العصر الجاهلى والاموى والعصور التالية ، وكان الغرض من الأراجيز فى العصر الجاهلى وصدر الاسلام الفخر ، « فقد كثرت الأراجيز فى المعارك الاسلامية الأولى . وفى وصف الفتوحات والحروب . وكانت الأراجيز فى صدر الاسلام تقال فى الثناء على الله بما أبلى من ذلك ، ثم فى رثاء الشهداء ومدح الأفذاذ من المجاهدين ، ثم كثرت فى الشوق الى خوض المعارك الاسـلامية ذيادا عن المجد والدين الى ما هو من لوازم العربى من الشوق والحنين الى الأحباب والأوطان » (٣) ·

---

(١) ابن رشيق العمدة ج ١ ص ١٦٠ المصدر السابق ·
(٢) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٦١ المصدر السابق ·
(٣) د· محمد عبد المنعم خفاجى · البناء الفنى المقصيدة العربيـة ص ٨٤ دار الطباعة المحمدية بالأزهر الشريف · القاهرة ·

الرجز واثراء اللغة :

ونقف ـ أيضا ـ عند ما أثير فى كلام بروكلمان من أن الرجـــز كان الهدف منه وضع صـيغ جديدة لزيادة ثروة المعجم العربى • وكأن هـذه الكلمات التى جاءت على ألسنة الرجاز لم تكن مستعملة عند العرب فى عصر صدر الاسلام أو العصر الجاهلى ، فوضـعها الرجاز فى العصر الاموى ، لاثراء المعجم اللغوى العربى ، واذا كان الأمر كذلك فلمـــاذا استخدمها علما اللغة شواهد على قواعدها ، حقيقة أن العصر الأموى ، وأوائل العصر العباسى من العصور التى جعلها العلماء عصورا يستشهد بها على أصـالة اللغة الا أنه يشتم من كلام بروكلمان رمى علماء اللغة بالوضع والتحريف ، أو بالزيادة والنقصان فى لغة العرب • ونحن ان آمنا بذلك فان علينا أن نحذف كل كلام قيل بعد العصر الجاهلى ، أو علينا أن نحذف من معجمنا اللغوى كل الألفاظ التى نطقها الرجاز ، لأنهم لا يؤمنون على سلامة اللغة والحفاظ على استعمال مفرداتها ومعنى ذلك ـ أيضا ـ أن الشواهد الكثيرة التى وردت فى كتب اللغة والنحو يجب حذفها ، لأنها وردت على ألسـنة الرجاز ، أو قيلت فى عصر بنى أمية ، ونحن نعلـــم أن واضعى النحو ، وعلم اللغة كانوا من الأمانة بمكان بحيث لا يتطرق اليهم الشـك مطلقا ، ولا يستطيع عاقل أن يطعن فى أمانتهم على اللغة ، وحرصهم على سـلامتها الأمر الذى يجعلنا نرفض كل هذه الآراء المسمومة ، والأفكار المضللة •

قد يكون هؤلاء الرجاز قادوا بحشد هائل لمفردات اللغة فى مقطعاتهم حتى يجعلوا الناس ـ جميعا ـ يعيشـــون مفردات لغتهم ، ولا ينفصلون عنها ، فهم يخشون على لغتهم من الضياع ، وعلى مفرداتها من الاندثار ، وعلى سامعيهم من البعد عن أصالة اللغة ، ونسيان أصولها ، ومن أجل ذلك استخدموا كثيرا من المفردات التى قد يظن البعض أنها غريبة ، أو أنها غريبة ، ولكنها مفهومة للسامعين فى عصرهم ، ولذلك فان السامعين للرجاز فى العصر الأموى لم يتفرغوا عن سـماع هذه الأراجيز ، بل انهـم كانوا

يستجيدونها ، ويطربون لسماعها ، واذا كان هذا شان العامة من الناس فما بالك بالخاصة منهم . فقد وجدنا المتخصصين فى اللغة ورواياتها لا يحسون بغرابة لغة الرجاز ، ولو أحسوا بذلك لوقفوا فى وجوههم ، وجعلوهم يستخدمون مفردات يعرفها الجميع ، وسيأتى الحديث عن لامية ابى النجم العجلى التى قالها فى حضرة جمع عند هشام بن عبد الملك . وهو يصفق بيديه استحسانا له ، واعجابا بوصفه على الرغم مما تعج به اللاميه من مفردات لا مناص من اعترافنا فى عصرنا هذا بغرابتها ، وتحتاج الى استخدام المعاجم اللغوية فى بيان معناها ، وهذه قضية الشعر العربى فى العصور الأولى ، لأن هؤلاء الشعراء كانوا يستخدموا ألفاظا يعبرون بها عن بيئتهم البدوية ، ويصفون باستخدامها ماعون بيتهم كما قال ابن الرومى عندما قيل له لماذا لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ، ونحن فى عصرنا هذا لن نستطيع العودة الى بيئة هؤلاء الشعراء والرجاز ، لنفهم ما قالوه دون عناء ، أو كد للفكر، أو رجوع الى المعاجم اللغوية ، لنقف على أسرارها. الا أن اولئك الذين أوتوا سعة فى علم ، وجانبا كبيرا من فهم لا يجدون عناء كبيرا فى التعرف على مفردات هذا الشعر ، وفهم معجمه .

ولعل ذلك هو الذى دفع الدكتور شوقى ضيف للخروج بنتيجة تقرر أن هذه الأراجيز كان الهدف منها تعليميا ، فقد قال : « وقد بلغت هذه المتون صورتها المثالية عند رؤبة ، فهو النمو الأخير لهذا العمل التعليمى الذى أرادته المدرسة اللغوية من جهة ، والذى استجاب له الشعراء ، وخاصة الرجاز من جهة أخرى » (١) .

ثم يقول : « نحن اذن بازا متون تؤلف لا بازاء أشعار تصاغ ، ويعبر بها أصحابها عن حاجتهم الوجدانية أو العقلية ، فقد تطور الشعر

---

(١) د. شوقى ضيف . التطور والتجديد فى الشعر الاموى ص ٢١٧ ط. دار المعارف ـ الطبعة السابقة .

العربى ، وأصبحت الأرجوزة منه خاصة تؤلف من أجل حاجة المدرسة اللغوية ، وما تريده من الشواهد والأمثال ، ثم يقول أيضا : « والأرجوزة الأموية من هذه الناحية تعد أول شعر تعليمى ظهر فى اللغة ، ولعل فى هذا ما يدل على المكان الذى ينبغى أن توضع فيه ، أو الذى وضعت فيه فعلا . فمكانها صحف العلماء من مثل يونس وأبى عمرو بن العلاء يتعلمونها ويعلمونها الناس ، وينقلونها الى أذهانهم ، وينقشونها فى عقولهم ، ليدلوا بها على مدى علمهم فى اللغة ، ومعرفتهم بألفاظها المستعملة والمهملة . وهذا هو معنى أنها شعر تعليمى . وهى ليست فى « الأعمال والأيام » كما صنع شاعر اليونان القديم « هزيود » ولا فى أحكام الصوم كما صنع أبان بن عبد الحميد فى العصر العباسى ، ولا فى النحو كما صنع ابن مالك الاندلسى فى ألفيته . وانما هى فى اللغة من حيث هى لغة » (١) .

وكلام الدكتور شوقى ضيف يجرد الرجز من العاطفة تماما ، ويسلكه فى سلك الشعر التعليمى وهو كلام جد خطير . لأنه لا يلقى بالا لكل الأراجيز التى قيلت . وعبر بها قائلوها عن عاطفتهم وأحاسيسهم ، ولعله من الأمور المقررة أن الانسان عندما يصيغ شعره أو رجزه فى أسلوب تعليمى فانما يصيغه فى جو هادىء ، وبأفكار منظمة ، وقد يرجع اليه فى كثير من الأحيان بالتنقيح والتهذيب ، ولكننا رأينا الرجاز ينشدون رجزهم ارتجالا ، ويصيغون عباراتهم لساعتها ، واذا كنا قد قدمنا أن الرجز كان يستخدم كثيرا فى مجال الفخر ، والانتصارات الحربية كما قال دريد بن الصمة :

ليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع

فان الأمر يقتضينا أن نتحفظ كثيرا أمام تلك النتائج الخطرة التى

---

(١) د. شوقى ضيف ـ التطور والتجديد فى الشعر الاموى ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ المرجع السابق .

خرج بها. الدكتور شوقى ضيف عند عرضـــه لقضية الرجز فى العصر الأموى ، ولعل النماذج التى سنعرض لها فى رجز أبى النجم العجلى تجلى لنا عاطفته عند انشادها ، وخاصة تلك التى قيلت فى مجال الفخر . أو التى حدثت بينه وبين العجاج ، والتى كانت تنشد لساعتها ·

ونعل ذلك ـ أيضا ـ يجعلنا نسلم بما قيل من أن الأراجيز : « وهى تكاد تكون لازمة من لوازم العربى فى الجاهلية والاسلام ، فخرا ببطولة واقدام . أو تروعا لخصم ومقاتل . أو تشبيبا لردنه ومظاهره . الى ما تمثل بوزنها الخاص من ركضات الخيـــل . وضربات السيوف . واختلاجات الرماح . وحفزات الهمم الا وأن يكون لها السبق دائما على الشعر فى هذه المقامات الى ما تتسم به من قصرها وقربها من البديهة والارتجال . ولأنها تمثل دفعات شعورية قوية وبسيطة فى آن . ولانحصار اغراضـــها فيما تثيره الحرب عند اشتعالها والاصطلاء بها انحصارا أشد . والمتـــأمل فى خصائص ما صح من هذه الأراجيز يجد أنها تتسم أحيـانا بالاناقه اللفظية من الجناس كقول خالد رضى الله عنه فى وقعة مرج الروم :

نحن قتلنا توذرا وشـــوذرا وقبله ما قـد قتلنـــا حيـدرا

نحن أزرنا الغيضة الاكيدرا (١)

بعد هذه الجولة التى جلناها بين الرجز والقصيدة وما اثير خـلالها من قضايا حول اثراء الرجز للمعجم الشعرى . وما أبديناه من ملاحظات حول هذه القضايا نعود الى أبى النجم العجلى نتتبع أخباره ، ونقف عندها، كى نتبين من خلالها ملامح شخصيته ·

---

(١) د· محمد عبد المنعم خفاجى · البناء الفنى للقصيدة العربيـــة ص ٧٢ ـ ٧٣ المرجع السابق ·

بين أبى النجم وهشام بن عبد الملك :

يكاد المتحدثون عن أبى النجم يجمعون على انه كان محظيا لدى هشام ابن عبد الملك . وكان هشام يحب السماع الى أراجيزه . وفكاهاته . بل انه كان محببا الى قلب والده عبد الملك بن مروان حسب ما جاء فى رواية الاغانى . فقد ذكر أن أبا النجم كان عند عبد الملك بن مروان يوما . وعنده جماعة من الشعراء فيهم الفرزدق . وجارية واقفة على رأس عبد الملك تذب عنه . فقال : من صبحنى بقصيدة يفتخر فيهـــا وصدق فخره فله هـذه الجارية . فقـــاموا من ذلك . ثم قالوا : ان أبا النجم يغلبنـــا بمقطعاته (يعنون الرجز) قال فانى لا أقول الا قصيدة . فقال من ليلته قصيدته التى فخر فيها وهى :

علق الهوى بحبائل الشعثاء

ثم أصبح ، ودخل عليه ومعه الشعراء فأنشده حتى بلغ الى قوله :

منا الذى ربع (١) الجيوش لظهره عشرون وهو يعـــد فى الأحيـــاء

فقال له عبد الملك : قف . ان كنت صدقت فى هذا البيت فلا نريد ما وراءه . فقال الفرزدق وأنا أعرف منهم ستة عشر . ومن ولد ولده أربعة كلهم قد ربع . فقال عبد الملك . أو سليمان : ولد ولده هم ولده . ادفع اليه الجارية يا غلام . قال : فغلبهم يومئذ » (٢) .

ورواية ابن سلام الجمحى تذكر جزءا من القصيده السـابقة ، ثم تنسب الواقعة بين أبى النجم وسليمان بن عبد الملك ، وليس عبـد الملك ابن مروان . يقول ابن سلام : وكان أبو النجم ربما قصد فأجاد . ولم يكن

---

(١) ربع القائد الجيش يربعهم أخذ ربع الغنيمه . ويقال له أيضا المرباع وهو ما يأخذه الرئيس من المغنم كما جاء فى مختار الصحاح .

(٢) أبو الفرج الأصبهانى : الاغانى جـ ١٠ ص ١٥٣ ، ١٥٤ ـ المصدر السابق .

كغيره من الرجاز الذين لم يحسنوا أن يقصدوا . وكان صاحب فخر وبذخ وهو الذى يقول :

علق الهوى بحبائل الشعثاء
والموت بعض حبائل الأعواء
ليت الحسان اذا اصبن قلوبنا
بالدا حدن بنعمة وشفاء
لشم عندى بهجة وملاحة
وأحب بعض ملامحة الزلفاء
وأرى البياض على السماء جهارة
والعتق نعرفه على الأدماء
والقلب فيه لكلهن مودة
الا الكل دمعة زلاء

وبعد ان ينتهى أبو النجم من هذه المقدمة الغزلية الرائقة التى ذكر فيها مدى تأثير الهوى على أصحابه وأنه يكون من بعض الأسباب التى تودى بالانسان . وما ذكره من نعم للنعمة والشفاء من قبل الحسان بعد أن اصبن القلوب بداء الهوى . ثم أخذ يصف ما تتمتع به البيضاء والسمراء من رقة وجمال . وأن قلبه يحمل مودة لكلتيهما بعد هذه المقدمة قال مفتخرا :

قلنن فخرت بوائل لقد ابنت
قوم المكارم فوق كل بناء
ولئن خصصت بنى لجيم انني
لاخص مكرمة وأفضل غناء
قوم اذا نزل القطيع تحملوا
حسن البناء وأعظم الأعباء
لبست مجالسنا تقر لقائل
زيغ الحديث . ولا تنا الفحشاء

ثم يقول ابن سلام - وحدثنى أبى سلام ببعض هذا الحديث قال : اجتمع شعراء العرب عند سليمان بن عبد الملك . فأمرهم أن يقول كل رجل

منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب . ثم جعل لمن برز منهم جاريه (مولدة) فانشده وانشده ابو النجم حتى اتى على قوله :

عدوا كمن ربع الجيوش لصلبه عشرون . وهو بعد فى الاحيا

فقال سليمان : أشهد ان كنت صادقا انك لصاحب الجارية . فقال ابو النجم سل الملأ عن ذلك يا أمير المؤمنين . قال الفرزدق أما أنا فاعرف منهم ستة عشر . ومن ولد ولده أربعة كلهم قد ربع . فقال سليمان ولد ولده هم ولده . ادفع له الجارية » (١) .

أما اخبار أبى النجم مع هشام بن عبد الملك فكثيرة من أرقها واندرها ذلك الخبر الذى تناقلته كتب الأدب ، وذكره كثير من الذين عنوا باخبار أبى النجم . فقد ذكره الأغانى بسنده قال : وفد ابو النجم على هشام بن عبدالملك فى الشعراء . فقال لهم هشام : صفوا لى ابلا فقطروها وأوردوها وأصدروها حتى كأننى أنظر اليها ، فانشدوه ، وانشده ابو النجم :

« الحمد لله الرءوب المجزل »

حتى بلغ الى ذكر الشمس فقال :

وهى على الافق كعين

وأراد أن يقول : « الأحول » ثم ذكر حولة هشام فلم يتم البيت . وأرتج عليه . فقال هشام : أجز البيت . فقال : « كعين الأحوال ، وأتم القصيدة . فأمر هشام فوجىء عنقه . واخرج من الرصافة . وقال لصاحب شرطته : ياربيع ابالك وأن أرى هذا ! » (٢)

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٤٩ ـ ٧٥١ المصدر السابق .

(٢) أبو الفرج الاصبهانى . الاغانى ج ١٠ ص ١٥٥ ـ المصدر السابق

ولكن هشاما الذى غضب على أبى النجم ، وأخرجه من مجلسه ، لأنه أساء التعبير عندما ذكر كلمة « الأحول » التى جاءت فى وصفه للشمس ، وهو يعلم أن هشاما به حول ما لبث هشـــام أن عطف عليه ، وبطرب لنادرته ، وتشبيه على رجزه ، فقد ذكر صـاحب الأغانى أن أبا النجم عندما خرج من مجلس هشام ، كلم وجوه الناس صاحب الشرطه أن يقره ففعل فكان - أى أبو النجم - نصيب من فضـول أطعمـــة الناس ، ويأوى الى المساجد ، يقول صاحب الأغانى : وقال الزبير فى خبره قال أبو النجم ، ولم يكن أحد بالرصافة يضيف الا سليم بن كيســـان الكلبى وعمرو بن بسطام الخلبى ، فكنت آتى سليما ، فأقدم عنده ، وآتى عمرا ، فأتعشى عنده ، وآتى المسجد فأبيت فيه ، قال : فأتعشم هشـام ليلة ، وأمسى لقس النفس ، وأراد محدثا يحدثه ، فقال لخادم له : أبغنى محدثا أعرابيا أعوج شاعرا يروى الشعر ، فخرج الخادم الى المســـجد فاذا هو بأبى النجم ، فضربه برجله ، وقال له : قم أجب أمير المؤمنين ، قال : انى رجل أعرابى غريب ، قال : اياك أبغى ، فهل تروى الشعر ؟ قال : نعم وأقوله ، فأقبل به حتى أدخله القصر ، وأغلق البـاب ، قال : فأيقن بالشر ، ثم مضى به فأدخله على هشام فى بيت صغير ، بينه وبين نسائه ستر رقيق ، والشمع بين يديه يزهر ، فلما دخل قال له هشام : أبو النجم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، طريدك ، قال : اجلس فسأله وقال له : أين كنت تأوى ، ومن كان ينزلك ؟ فأخبره الخبر قال : وكيف اجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدى عند هذا ، وأتعشى عند هذا ، قال وأين كنت تبيت ؟ قال : فى المسجد حيث وجدنى رسولك ، قال : وما لك من الولد والمال ؟ قال : أما المال فلا مال لى ، وأما الولد فلى ثلاث بنات ، وبنى يقال له شيبان ، فقـــال : هل زوجت من بناتك أحدا ؟ قال : نعم ، زوجت اثنتين ، وبقيت واحـــدة تجمز فى أبياتنا كأنها نعـــامة ، قال : وما وصيت به الأولى ؟ وكانت تســـمى بره - بالراء - فقال :

أوصـــيت من برة قلبـا حرا بالكلب خيرا والحمـــاة شرا

لا تسامى ضربا لها وجرا حتى ترى حلو الحياة مرا
وان كسنك دهبا ودرا والحى عميهم بشر طرا

فضحك هشام . وقال : فما قلت للاخرى ؟ قال قلت :

سبى الحماة وابهتى عليها وان دنت فازدلفى اليها
واوجعى بالفهر ركسيها ومرفقيها واضربى جنبيها
وظاهرى النذر لها عليها لا تخبرى الدهر به ابنتيها

قال فضحك هشام حتى بدت نواجذه . وسقط على قفاه . فقال ويحك ! ما هذه وصية يعقوب ولده ! فقال : وما أنا كيعقوب يا امير المؤمنين قال : فما قلت للثالثة ؟ قال : قلت :

أوصيك يا ابنتى فانى ذاهب أوصيك أن تحمدك القرائب
والجار والضيف الكريم المساغب لا يرجع المسكين وهو خائب
ولاتنى أظفارك السلاهب منهن فى وجه الحماة كاتب
والزوج ان الزوج شمس الصاحب

قال : فكيف قلت لها هذا ولم تتزوج ؟ وأى شىء قلت فى تأخير تزويجها ؟ قال : قلت فيها :

كان ظلامة أخت شيبان بهمة وواهاها حيان
الرأس قمل كله وصئبان وليس فى الساقين الا خيطان
تلك التى يفزع منها الشيطان

قال : فضحك هشام حتى ضحك النساء لضحكه . وقال للخصى : كم معى من نفقتك ؟ قال ثلاثمائه دينار . قال : أعطه اياها ليجعلها فى رجل ظلامة مكان الخيطين » (١) .

---

(١) أبو الفرج الاصبهانى . الاغانى جـ ١٠ ص ١٥٦ ـ ١٥٩ ـ المصدر السابق .

ولعل القارى، لوصايا ابى النجم المتقدمة يدرك انه ابتكرها لساعتها كى يسرى بها على هشام بن عبد الملك ، فهى لا تعدو ان تكون نوادر لطيفه واقوالا تساق فى مجالس التفكهة ، وحب الاضحاك ، ولقد اتخذ من بناته الثلاث مجالا لنوادره ، لأن امير المؤمنين سأله عنهن وأراد معرفة اخبارهن . ولعل هذه الوصايا تطلعنا على لون من الرجز لم يستخدم لحشد عدد من الألفاظ الغريبة ، أو الكلمات المعجمية . وانما اتى عفو الخاطر دون تكلف أو تعمل .

وهكذا ياخذ ابو النجم مكانه مرة أخرى فى مجلس هشام بن عبدالملك ليسرى عنه .وينال عطفه ورفده . قال أبو عمرو الشيبانى قال ابن كناسة :

« قال هشام بن عبد الملك لأبى النجم : يا ابا النجم حدثنى . قال : عمى أو عن غيرى ؟ قال لا بل عنك . قال : انى لما كبرت عرض لى البول . فوضعت عند رجلى شيئا أبول فيه ، فقمت من الليـــل ابول ، فخرج منى صوت ، فتشددت ، ثم عدت فخرج منى صوت آخر ، فاويت الى فراشى فقلت يا أم الخيار : هل سمعت شيئا ؟ فقالت : لا والله ولا واحده منهما فضحك ـ قال : وأم الخيار التى يعنى بقوله :

قد اصبحت أم الخيـار تدعى على ذنبـــا كله لم اصـــنع

وهى أرجوزة طويلة » (١) .

فهل ترى رفعا للكلفة بينه وبين هشام بن عبد الملك أكثر من ذلك . ولم يكن أبو النجم فكها فقط ولا مادحا لهشام فحسب . بل انه كان يجيد الوصف ، وكانت بديهته السريعة تسعفه فى كل وقت . يروى ابن قتيبة فيقول : « وحدثنى عبد الرحمن عن عمه قال : « كان هشام بن عبد الملك مسبقا لا يكاد يسبق ، فسبق (ذات يوم) على فرس له انثى ، وصلى على

---

(١) ابو الفرج الاصبهانى : الاغانى جـ ١٠ ص ١٥٩ ـ المصدر السابق

ابنها ، ففرح ، وقال : على بالشعراء، قال أبو النجم فدعينا ، فقيل لنا : قولوا فى هذه الفرس السابقة وفى ابنها ، فقال أصحاب القصيد : أنظرنا حتى نقول ، وقلت فى مقامى ذلك هل لك فى رجل ينقذك اذ استنسؤوك' قال : هاته فقلت من ساعتى :

أشاع للغـرا. فينـــا ذكرها
قـــوائم عـــوج أطعـــن أمرها
وما نســـــينا بالطـريق مهرها
حـــين نفيس قـــدره وقـــدرها
وصـــبره اذ أوعثـــا وضـــبرها
والماء يعلـــو نحـــره ونحـرها
ملبـــونة شـــد المليك أسرها
أســـفلها وبطنهـــا وظهـــرها
قد كاد هاديها يكون شـــطرها
لاتأخذ الحلبة الا ســؤرها (٢)

فانت ترى ان أبا النجم يضرب فى كل ميدان ، ويتنقل بشعره ورجزه فى كل مكان ، تشد ازره ذاكرة قوية ، وبديهة سريعة ، ولغة تســعفه ، وملكة تتحفه ، واعتداد بنفسه ، وثقة بفنه ، يضعانه فى درجة عالية ، ليقدم الرجاز ، ويعترف له بالسبق الشعراء .

بين أبى النجم والعجاج :

لقد كان العجاج من الرجاز الذين أوتوا قدرة فائقة على الرجز حتى ان المؤرخين يضعونه - أحيانا - سابقا على أبى النجم ، ويقولون انه وأبا

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٠٩ - ٦١٠ تحقيق وشرح احمد شاكر ط. دار التراث العربى .

النجم والأغلب العجلى انتصفا الرجاز من الشعراء ، والعجاج : « عبد الله بن رؤبة بن لبيد بين صخر بن كنيف بن حنى بن ربيعة سعد بن مالك ابن زيد مناة بن تميم » (١) .

وكان العجاج معاصرا لابى النجم العجلى . وكانا يتلاحيان أحيانا ، ولكن العجاج كان يعترف لأبى النجم بالسبق والفضل ، وكان رؤبة يقول عن أبى النجم . انه رجاز العرب . فقد قال فتيان من عجل لأبى النجم : « هذا رؤبة بالمربد يجلس فيسمع شعره ، وينشد الناس ، ويجتمع اليه فتيان من بنى تميم . فما يمنعك من ذلك ؟ قال : أو تحبون هذا ؟ قالوا : نعم . قال : فانونى بعس من نبيذ فأتوه به فشربه ، ثم نهض وقال :

اذا اضطحبت أربعا عرفتنى ثم تجشمت الذى جشمتنى

فلما رآه رؤبة أعظمه . وقام له عن مكانه . وقال : هذا رجاز العرب وسألوه أن ينشدهم فانشدهم :

الحمد لله الوهوب المجزل

وكان اذا أنشد أزبد ووحش بثيابه (أى رمى بها) ، وكان من أحسن الناس انشادا فلما فرغ منها قال رؤبة : هذه أم الرجز ، ثم قال : يا أبا النجم قد قربت مرعاها اذ جعلتها بين رجل وابنه ، يزعم عليه رؤبة حيث قال :

تبقلت من أول النبقل بين رماحى مالك ونهشل

أنه يريد بهشل بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، فقال له أبو النجم : هيهات : الكمر تشابه . أى انى انما اريد مالك بن ضبيعة

---

(١) ابن سلام الجمحى . طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٧٣٨ المصدر السابق .

ابن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر وائل ، ونهشل قبيلة من ربيعة » (١) .

واذا كان رؤبة قد اعترف لأبى النجم بالسبق ، وأنه رجاز العرب فما ذلك الا أنه كان يبذهم فى الرجز ، ويتغلب عليهم فى الانشاد ، وكان ذكيا فى اختيار المواقف التى تجعله يكسب الجولة من الجميع ، وقد كان العجاج وابو النجم يحدث بينهما تهاج ، وكان العجاج لا يستطيع اثبات أمام أبى النجم ، فقد روى صاحب الأغانى من ذلك أخبـــارا منها قوله منسوبا : « خرج العجاج متحفلا عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد ، والناس يجتمعون فأنشدهم قوله :

قد جبر الدين الاله فجبر

فذكر فيها ربيعة ، وهجاهم ، فجاء رجل من بكر وائل الى أبى النجم وهو فى بيته فقال له : أنت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس !! قال : صف لى حاله وزيه الذى هو فيه ، فوصف له ، فقال أبغنى جملاطحانا قد أكثر عليه من الهناء (أى القطران) فجاء بالجمل اليه ، فأخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها واتزر بالأخرى ، وركب الجمل ، ودفع خطامه الى من يقوده ، فانطلق حتى أتى المربد ، فلما دنا من العجاج قال : اخلع خطامه فخلعه وأنشد :

تذكر القلب وجهلا ما ذكر

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها ، ويتباعد عنه العجـــاج لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران حتى اذا بلغ الى قوله :

شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى الأغانى ج ١٠ ص ١٥١ المصدر السابق

تعلق الناس هذا البيت ، وهرب العجاج عنه » (١)

وروى ابن قتيبه هذا الخبر ـ ايضا ـ دون تلك الزيادات الكثيرة التى اوردها الأصبهانى فيقول : « وراجز العجاج فخرج العجـــاج على ناقة له (كوماء) وعليه ثياب حســـان ، وخرج أبو النجم على جمـــل مهنوء ، وعليه عباءة ، فأنشد العجاج :

قد جبر الدين الا له فجبر

ثم أنشد أبو النجم :

تذكر القلب وجهلا ما ذكر

حتى بلغ الى قوله :

انى وكل شـــــــاعر من البشر شـــيطانه أنثى وشيطانى ذكر
فما سآنى شـــاعر الا اســـــتتر فعل نجوم الليل عاين القمر
عشى تميم ، واصغرى فيحن صـــغر وحاورى الذل واعطى من عشر
أمـــرى الأنثى عليـــك والـــذكر فانما يشرب من ذل السـوْر

وارضى باحلابة وطب قد حزر

فلما فرغ من انشاده حمل جمله على ناقة العجاج يريدها ، فضحك الناس ، وانصرفوا وهم ينشدون قوله :

شيطانه أنثى وشيطانى ذكر (٢)

وهكذا يتغلب أبو النجم على منافسيه من الشـــعراء والرجاز بذكائه وسرعة بديهته .

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى . الأغانى ج ١٠ ص ١٥٢ ، ١٥٣ المصدر السابق .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨ المصـــدر السابق .

ما أخذ على ابى النجم :

اذا كان أبو النجم قد برز فى مجالى الشعر والرجز ، وكان صاحب بديهة سريعة أعدته بفيضها فى كثير من الظروف الحرجة ، بل جعلت غيره من الشعراء والجالسين يحنق عليه ويحسده على تلك القريحة الوقاده والحافظة الملهمة فان رجلا هذا شأنه لابد أن يجد منافسوه عنده ما يأخذونه عليه ، فقد جلس هشام بن عبد الملك يوما فى صحن داره ، وفتح بابها ، وأذن للناس اذنا عاما قد خلت العامة فاخذوا مجالسهم من الدار ، وجلس تجاه وجهه أسود مقنع بكسائه . وأمر أبا النجم أن ينشده ، وكان مشغوفا بشعره فانشده أرجوزته اللامية حتى اذا بلغ قوله فى وصف الابل بالغزر ذكر ضرعها فقال : « كالسقاء المسمل » فصاح الأسود : أتاك والله بها يا أمير المؤمنين نزرا غير غزر ، قد استجفت ضروعها ، وذهبت ألبانها حين شبهها بالمسمل . قال : فكيف ينبغى أن يقول ؟ قال كما قلت ، وأنشد :

كنا اذا عام ألحت أزمه ... وجعل المطحون تغلو قيمه
لا يشبع المرضع منه درعمه ... جادت بمطحون لها لا تاجمه
لاينفخ البطن ولا يورمه ... تطبخها دروعها وتادمه

فقال هشام : من أنت ويلك ؟ قال : أنا أبو نعامة مولى بنى سعد »(١)

واذا كان الشعراء والرجاز كانوا له بالمرصاد فان النقاد - أيضا - لم ينوا فى تتبع سقطاته والتماس هفواته التى قد تكون سرعة البديهة والارتجال لهما أثر كبير فيهما . ولكنهم على أية حال عابوا عليه أشياء منها :

١ - أخذوا عليه وصفه للفرس ، وقد أجراه فى حلبة فقال :

تسبح أخراه وتطفو أوله

---

(١) المرزبانى ، الموشح ص ٢١٤ .

« قال الأصمعى : أخطأ فى هذا ، لأنه اذا سبح أخراه كان حمـــار الكساح أسرع منه ، قال الأصمعى : وحدثنى أبى أنه رأى فرســـه هذا فقومه بسبعين درهما » ثم يقول صاحب الأغانى « وانما يوصف الجواد بأنه تسبح أولاه ، ويلحق رجلاه » قال : « وخير عدو الذكور أن تشرف ، وخير عدو الاناث أن تنبسط وتصفى كعدو الذئب » (١)

٢ ـ وقد اخذ الأصمعى ـ أيضا ـ على أبى النجم وصفه لورود الابـل بقوله :

وهى عـلى عـذب روى المنهـــــل دحل أبى المرقال خير الأوحـل
من نحت عاد فى الزمان الأول

قال الأصمعى : الدحل لا تورده الابل انما تورده الركايا . (٢) وقد عيب بهذا ، وعيب بقوله فى البيت الذى يليه ، : انهذا الرحل من نحت عاد قال : والرحلان لا تحفر ، ولا تنحت ، انما هى خروق وشعاب فى الأرض والجبال ، لا تصيبها الشمس ، فتبقى فيها المياه ، وهى هوة فى الأرض يضيق فمها ، ثم يتسع فيدخلها ماء السماء » (٣) ·

ونقد الأصمعى فى الموضعين السابقين يعتمد عـــلى فهمه للغة التى يتحدث بها أبو النجم ، ويخاطب سامعيه ، وهذا رد أيضا على من يقـول : ان الرجاز اخترعوا الفاظا وكلمات لم تكن مستعملة أو انها غريبة عـــلى سماع المخاطبين رغبة فى اثراء المعجم العربى ·

---

(١) أبو الفرج الأصبهانى · الأغانى ج ١٠ ص ١٦١ المصدر السابق وقد ورد ذلك النقد فى الشعر والشعراء ـ أيضا ·
(٢) الركايا جمع ركية : البئر ·
(٣) أبو الفرج الأصبهانى ج ١٠ ص ١٦١ المصدر السابق ·

٣ ـ ومما أخذ عليه أيضا قوله يصف بعيرا :

أخنس فى مثل الكظام مخطمه

يقول ابن قتيبه والأخنس : القصير المشافر ، وهذا عيب ، وانما توصف المشافر بالسبوطة ـ أى الاستواء ـ والكظام : القنى التى يجرى فيها الماء (١) ٠

٤ ـ وأخذ عليه أيضا قوله فى وصف الابل :

جاءت تسامى فى الرعيل الأول والظل عن أخفافها لم يفضل

يقول ابن قتيبة ٠٠ ولم يحسن فى وصف ورود الابل ذكر أنها وردت فى الهاجرة ، والعادة فى هذا أن توصف بالورود غلسا ، والماء بارد كقول الآخر :

فوردت قبل الصباح الفاتق

وكقول لبيد :

ان من وردى تغليس النهل

وكقول الآخر :

فوردن قبل تبين الألوان (٢)

٥ ـ وأخذ عليه قوله فى وصف راعى الابل

صلب العصا جاف عن التنزل

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦١٢ المصدر السابق ٠
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦١٢ ـ ٦١٣ المصدر السابق ٠

قال الأصمعى : لا يوصفّ راعى الابل بصلابة العصا ، والجيد قول الراعى :

ضعيف العصا بادى العـــروق ترى له عليها اذا ما أمحل الناس اصبعا (١)

وهكذا يسهم النقاد - أيضا - بجهدهم فى تقويم الرجز ، كما أسهموا فى تقويم الشعر ، لأن الرجز قسيم الشعر ، فلا بد أن يكون للرجز نصيب فى كتبهم وأخبارهم ، فابن سلام الجمحى ، وابن قتيبة ، والأصـــبهانى يفردون جانبا من كتبهم للحديث عن الرجاز الذين كانوا يزحمون الشعراء بمناكبهم ، وكذلك صنع الأصمعى فى فحولة الشعراء والمرزبانى فى الموشح ولم يفت عبد القاهر الجرجانى أن يكتب فى طرائفه الأدبية أهم أرجـوزة لابى النجم العجلى ، وهى اللامية التى أعجب بها هشـــام بن عبد الملك ، وسماها رؤبة بن العجاج أم الرجز .

ولقد كنت أود لو أن الوقت يســـمح أن أعيد - فى مجلتنا الغراء - نشر هذه الأرجوزة والتعليق عليها ، حتى يتعرف القارىء على ما حوته تلك الأرجوز من معان رائقة ، وألفاظ نادرة ولكننى أرشد القارىء الى أن هذه الأرجوزة منشورة بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد الثامن سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد والمجلة موجودة بقسم الدوريات بدار الكتب المصرية ، وقد قام الأســـتاذ عبد العزيز الميمنى بتحقيق « الطرائف الأدبية » ونشرها سنة سبع وثلاثين وتسعمائة والف ، واللاميه منشورة ضمن « الطرائف الأدبية » ، فمن أراد الرجوع اليها فليطلبها من دار الكتب المصرية - أيضا -

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦١٣ المصدر السابق .

وبعد : فهذه جولة حول شخصية أبى النجم العجلى ، بل حـــول فن الرجز الذى كان ثروة هائلة أثرت الشعر العربى ، وعقدت آصرة قوية بين لغة الحديث اليومية ، وبين اللغة العربية الأصيلة ، وجعلت النـــاس لا ينفرون من استخدام ألفاظ قد يظن فى العصور المتأخرة أنها الفـاظ اندثرت . أو عفى عليها الزمان ، وغطاها النسيان بستار كثيف من الضباب فلا نكاد نتبين معالمها الا بالرجوع الى المعاجم اللغوية ٠

ولعل هذا البحث يكون قد أثار بعض الأفكار التى تهم القـارىء ، وتطلعه على شىء هو فى حاجة اليه ، بل لعله يثير حمية بعض اخواننـــا المشتغلين بعلوم اللغة فيحاولون كشف الجوانب اللغوية التى جـاءت فى أراجيز العصر الأموى ، ولم تكن مستعملة فى العصر الجاهلى وبيان مـــدى التطور اللغوى فى هذا الفن الشعرى الأصيل ٠

ولعل هذا البحث أيضا ـ يدفع بعض اخواننا المشتغلين بالدراسات الأدبية فيحاولون جمع شعر أبى النجم العجلى ورجزه ، ووضع دراسات نقدية حولهما ٠ انهم ان فعلوا ذلك خرجوا بنتاج ممتع ٠

وفقنا الله جميعا لما فيه الخير ، وهدانا سواء السبيل ٠

د ٠ عبد المنعم احمد يونس
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية
بالمنـوفيـة